"قصة موت معلن"

نبوءة الرمز وقسوة الدلالة

عاطف البطرس

صدرت رواية ((قصة موت معلن)) للكاتب الكولومبي كابريل غارسيا ماركيز عام ١٩٨١، وقد طبع منها مليونان ومئة وخمسون الف نسخة في كل من يوغاتا وبوينس أيرس وبرشلونة، وقد تمت ترجمتها قبل ان تنهي عامها الاول الى اكثر من اثنتين وثلاثين لغة عالمية، وكان لـ ((صالح علماني)) فضل نقلها الى اللغة العربية وقد صدرت عن دار الحقائق عام ١٩٨٢.

ان هذا العدد الهائل من النسخ وسرعة نقل الرواية الى اللغات العالمية يدل على الاهتمام الكبير الذي يوليه القراء في العالم لكتابات ماركيز وحبهم الشديد لأدبه الانساني الرائع الذي يتحدث من خلاله عن مشاكل وهموم شعوب العالم الثالث.

ان الاهمية الفائقة لرواية ((قصة موت معلن)) والتي نبّه اليها الكاتب قبل صدورها باعتبارها ابرز أعماله نظراً للمجهد الكبير الذي بذله من أجل جمع حقائقها وتوثيق حوادثها كما حصلت في الواقع تماماً، مضيفا اليها قدرة الصحفي البارع الذي يحسن استخدام مادته.

ان أهمية هذه الرواية لا تأتي من ذلك كله فقط وإنما من كونها أيضاً تسجل براعة في فن الصناعة الروائية وتدل على قدرة المؤلف على تقديم رؤيته عبر تقنية فنية عالية تبرز من خلالها كل تفاصيل الواقع دون الوقوع في ميكانيكية النقل والتصوير الآلي. الحق ان واقعية ((ماركيز)) من نوع خاص. فهي بعيدة جدا عن واقعية ((فلوبير)) و ((بلزاك)) وحتى عن (تشيخوف) لانه ينقل تفاصيل يوحي لك بأنه يتحدث عن وقائع يومية جرت فعلا، الا انه يقدم رموزا تحتاج الى مزيد من الجهد لفك علاقاتها بالواقع الذي تنبثق عنه.

يقول الكاتب «لقد عاشت الرواية في صدري طيلة ثلاثين عاما ولم استطع ان اضع نهاية لها الى ان جاءت الحياة لترسم نهاية رواية فذة) إن إيهامنا بأن الكاتب يتحدث عن واقعة بسيطة جرت في احدى القرى سرعان ما سيزول عندما نطلع على تفاصيل الرواية وعلى الجهد الذي بذله خالقها لتقديمها بهذا الشكل الذي يوحي بالبساطة، الا انه غاية في التعقيد.

((سنتياغو نصار)) ليس شخصاً عادياً التقطه الكاتب من الحياة. انه رمز، والرمز هنا ليس تعبيراً عن واقع فقط بل هو سمو وارتفاع فوقه، فجمالية الرمز واثارته في نفس القارىء «مجموعة من الانفعالات الانسانية تأتي من كونه يخلق لدى القارىء» عالماً آخر.. قد يكون بديلاً عن الواقع القاسي الذي نعيش او ينقلك الى واقع اكثر قساوة عبر تكثيف مركز، فالمسافة بين الرمز ومدلوله هي التي تحدّد في النهاية جمالية الرمز وهي التي تهبه عمقه وإثارته، فكلما ابتعد الرمز عن مدلوله، اصبح اكثر ايحاء وإثارة، شريطة عدم انفصاله عن دلالته وقطع الصلة نهائيا بها، إنه ابتعاد ضمن دائرة الاتصال.

يقول ((ماركيز)) حول التفسير ((.. كل ذلك جعلني اقتنع ان هوس التفسير يغدو مع الزمن شكلاً جديداً من اشكال التخيّل ويؤدي احياناً الى قول الحماقات)).

فلو حاولنا قراءة الرواية دون ان نحاول فك رموزها او لو اخرجناها من دائرة الرمز فعلام سنحصل؟! ((سنتياغو نصار)) يقتل دون ان يدافع عنه احد، ودون ان يعمل احد لمنع جريمة القتل، وهل هذا ما قدمته عبقرية «ماركيز» من جهد مضن في عمل خلاق؟ اذاً لا بد من الرمز ولو غضب علينا الكاتب لان تحويل شخصية من الواقع الى شخصية روائية ثم تعميم هذه الشخصية يحتاج الى استيعاب كامل لها، لظروفها، لتركيبها النفسي، ثم لا بد ان

تعبر ذات الكاتب حيث تتم عملية الانصهار والولادة الفنية الجديدة لتعود الى الواقع الذي خرجت منه بحيث تصبح، لا هي كما كانت في الواقع وليس الواقع بعيداً عنها.

ان تحقيق هذه المعادلة البسيطة وتقديمها فنيا يحتاج الى صنعة روائية ودراية كالتي يملكها ((غابريل كارسيا ماركيز)).

((سنتياغو ابراهيم نصار)).. احد الشباب العرب المهاجرين ينتمي الى الجبل الثالث.... شاب مرح ومسالم وذو قلب بسيط كما يعرفه اصدقاؤه، يُتّهم بفعل لم يرتكبه، تلصق به تهمة لم يقترفها.. ((هيا ايتها البنت اخبرينا من هو: ماطلت لوقت لا يكاد يكفي لذكر الاسم، بحثت عنه في الظلمة ووجدته من النظرة الاولى، الى الاسماء الكثيرة المختلطة في هذا العالم وفي العالم الاخر وتركته مثبتا في الجدار بسهمها المحكم مثل فراشة لا خيار لها ومصيرها مكتوب منذ الأزل.

قالت: ((سنتياغو نصار)).

انها مسالمة شرف اذاً

لقد أعيدت ((انجيلا فيكاريو)) الى بيتها بعد ان كشف زوجها عدم عذريتها هي التي ارغمت على الزواج من غريب قادم الى قريتها. لقد تزوّجت بالاكراه، وزوجها كان يتصور أنه بماله يمكن ان يشتري سعادته، صرف كثيراً في حفلة الزفاف واشترى منزلًا فخماً لقد كانت ((انجيلا)) تعرف انها ليست عذراء وتتمنى ان يمنحها الله الشجاعة لقتل نفسها، كانت على وشك ان تنقل ذلك الى امها لتتحرر من هذا الزواج... الا انها تزوجت وكانت الكارثة التي سيذهب ضحيتها ((سنتياغو نصار)) ابرز وجوه الجالية العربية هناك على انه مرتكب جريمة الشرف هذه.

صبيحة يوم الاثنين حلم ((سنتياغو نصار)) بأنه ملوّث بكامله بزرق العصافير، لم يكن يعلم حتى الآن بحادثة عودة العروس التس لم تمض عليها ليلة واحدة، الا أنه عرف قبيل أن يقتل بقليل بأن اخوي الفتاة ينتظرانه لتنفيذ جريمة القتل به ثأراً لشرف اختهم المهدور..

الاخوان بسيطان كاطفال.. لم يقتلا في حياتهما، القرية تعرف وداعتهما الا انهما وتحت ضغط الحادثة وصوت الشارع حملا السكاكين وذهبا لانتظار ((سنتياغو)) دون ان يخفيا رغبتهما في القتل بل وقد صرّحا لاكثر من شخص في القرية برغبتهما هذه وكأنهما يريدان أن يقف أحد في وجههما ويمنعهما من ارتكاب جريمتهما التي دفعا اليها، فلم يجداه، الشرطي عرف نيّتهما، العمدة عرف أيضاً فلم يفعل اكثر من أنه أخذ السكاكين وانصرف دون أن يعتقلهما، كل الظروف كانت تسير بإحكام وفق خطة لم يضعها احد كما يصور الكاتب، فلم تُجْدِ كل محاولات منع القتل. أعزُّ أصدقاء ((نصار)) حاول ابلاغه ولكنه لم يستطع منع وقوع الحادث، والدته التي أغلقت الباب الذي كان مفتوحا لم تكن تعرف ان ابنها يقف خلفه عندما أوصدت المزلاج حيث كانت تسمع صرخات ((سنتياغو)) مع قرعات الرعب على البوابة؛ لقد كانت تظن انه في غرفة نومه.

الخدم في البيت كانوا يعلمون، لكنهم لم يخبروا نصارا. كانوا يريدون ان يُقتل، هذا ما قالته الخادمة ((فيكتوريا غوتمان)) وكثيرون في الميناء كانوا يعلمون انه سيقتل، الأب ((كارمن)) كان يعلم ايضا، العمدة يعرف، ولكن لديهم من الأسباب ما يجعلهم يعتقدون بأن الأمر اكذوبة، وهو عبارة عن حماقة شابين شربا كثيراً ليلة الزفاف. ان كل ما جرى كان بفعل الاحجام العام، فالناس الذين عادوا من الميناء حيث كانوا يستقبلون المطران ثبتتهم الصرخات، وقد بدأوا يتخذون مواقع في الساحة ليشهدوا جريمة القتل، حتى القاضي لم يكن ليستوعب بشكل خاص كيف يمكن للحياة ان تستفيد من مصادفات كثيرة لتتم ودون اية عرقلة عملية موت معلنة الى هذا الحد.

لقد قتل ((سنتياغو نصار)) فعلًا بسبع طعنات وامام منزله، الا انه حمل أمعاءه وصعد الى غرفته حيث فارق الحياة.

ان مشهد القتل الرهيب لانسان لم يقترف ذنباً يمزّق جسده بسبع طعنات من شابين قتلاه تحت وطأة إرث اجتماعي لم يستطيعا الهروب منه، رغم اننا لم نلاحظ أن ضغطا اجتماعيا قد مورس عليهما ـــ ان هذا المشهد يثير كثيرا من الحزن والاسى، خاصة اذا علمنا ان الجثة ستذهب الى التشريح وسيقوم بذلك كاهن القرية الذي قال:

((لقد كنا نقتله مرة اخرى بعد موته، ولكنها أوامر العمدة ذلك الهمجي يجب ان تنفذ مهما كانت سخيفة)).

حتى الكلاب هاجت وهاجمت الجثة تريد أكل احشائها، وفي نهاية المحضر يثبت ان سبب الوفاة أي جرح من الجراح السبعة الكبرى، لقد قُطِّعت أوصال ((سنتياغو نصار)) وتبددت ثم تلاشت لكن الجميع ما يزالون يحملون رائحته حتى القاتل بقي مستيقظاً احد عشر شهراً..

فاذا كان القتل جزاء لفعلة ((نصار)) التي لم يرتكبها فلماذا التنكيل بجثة القتيل؟..

لقد وقعت حادثة القتل ضمن مصادفات خطّطت لها الحياة، كما يريد ان يوهمنا الكاتب، ليكون ضحيتها ((سنتياغو)) فهل كان صمت الجالية العربية وعدم انتقامها مصادفة ايضا؟

((ولكن الغريب في الأمر أن الجالية العربية لم تفكر بالانتقام رغم أن أحداً لم يفكر بأن العرب قد غيّروا فجأة روحهم الرعوية فتجنبوا الثأر لميتة يمكن ان يكون اهل القرية مذنبين فيها)) لم تكن للعرب أية نية بالانتقام، حتى الأمّ العربية كبيرة السنّ هي التي شَفَت القاتلين من مرضهما المستعصي. إن تحيّز الكاتب لبطله واضح جدا في الرواية، فهو يرغب أن يكون بطله بريئاً، علماً بانه لم يجد أيّ دليل واثبات ضدّه سوى سمعة والدة واعتداء ((سنتياغو)) على خادمته المتفتحة حديثا لكن هذا لا يثبت التهمة الموجهة اليه، فلماذا قوبل بهذا الصمت؟

هل كان له اعداء في القرية لم يستطيعوا قتله؟ أم ان الجالية العربية كانوا يريدون الخلاص منه حسدا لما يتمتع به من مزايا يفوقهم بها؟. ان دوافع كثيرة كانت تمنعهم من ذلك فهو على اية حال منهم، ولكنهم عندما علموا بنوايا الأخوين ورغبتهما في القتل، صمتوا.. وحده ((جميل سليم)) هو الذي حاول انقاذه، ولكن محاولته أُحبطت، لقد قتل ((نصار)) دون ان يقوموا بقتله، لذلك صمتوا ولم يحركوا ساكنا حتى ولو بعد الوفاة، أم انهم كانوا يرون انه لقي جزاء فعلته؟

كثيرة هي الاسئلة التي تطرح نفسها ضمن هذا الصمت وعدم الرغبة في الانتقام، فماذا اراد ان يقول ((ماركيز)) وهل يتحدث فعلًا عن حادثة يمكن ان تقع في أي زمان ومكان في العالم، أم وراء صفاء وبساطة ((الحدوتة)) اشياء اخرى على قدر كبير من الخطورة جاءت الايام تؤكد دلالة الرمز وصحة النبوءة ولكن ليس في كولومبيا وانما في مكان بعيد جداً عنها.

فمن هو ((ابراهيم نصار)) ومن هم الصامتون رغم معرفتهم مسبقاً بوقوع الجريمة ومن هم الذين لم يحركوا ساكنا ولم يطالبوا بالثأر رغم رائحة البداوة التي ما تزال تفوح من اجسادهم، ومن هم الذين حاولوا مساعدة ((نصار)) ولكن امكانياتهم لم تسمح لهم بأكثر مما فعلوا؟..

أسئلة كثيرة واسئلة..

ما هذه المصادفات العجيبة أن القتل يصادف يوم قدوم المطران الذي كانت تنتظره اقفاص الديكة رمز الكبت الشعبي، وهل هي صدفة ايضا أن وصوله اربك القرية وخلق فيها شيئاً من الفوضى التي ساعدت على خلق جو مناسب لتنفيذ الجريمة. لقد تمت الجريمة تحت مجموعة من الأغطية المحافظة على الشرف، قدوم المطران الذي لا يأكل الا حساء مطبوخاً بأعراف الديكة التي ترمز للاضطهاد، حتى ولو ازعج هذا التفسير كاتبنا الكبير..

فهل قصة القتل هذه مجموعة مصادفات ام ان هناك يدا خفية نسجت خيوط الجريمة باتقان بارع ولم تترك ثغرة واحدة للشك بان كل ما حدث مجرد مجموعة مصادفات؟ اننا نعرفها تلك اليد التي تلاحق ((سنتياغو نصار)) حتى الى صبرا وشاتيلا... من هنا يجب ان ننظر الى الرواية منطلقين من قول الكاتب ماركيز ((أن الكاتب الذي يكون لديه شيء يقوله لا يلتزم فقط تجاه الواقع الاجتماعي والسياسي في وطنه بل تجاه الواقع في العالم بأسره من غير أن يزدري اي مظهر من مظاهره)) بعد هذا يمكننا ان نغير التسمية فتصبح ((قصة موت متقن)).

لم يكن الموت وحده المسيطر على جو الرواية ومحورها الرئيسي رغم طغيانه على جوها العام، فالى جانب حادثة القتل البشعة هذه ستنمو قصة حب رهيبة تخفي سرا عجيبا.

ان عودة ((بيار دو سان رومان)) الى زوجته المعادة في ليلة عرسها تدل ايضا على انتصار الحياة رغم مظاهر الموت الكالحة، لقد عادت ((انجيلا فيكاريو)) عذراء من جديد من أجل (بيار) القادم اليها والتي انتظرته طيلة ثلاثة وعشرين عاما، تكتب له رسائل حب مجنون في صومعتها

في قرية نائية مكبة على عملها وقد غطى رأسها الشيب. ان بيار ضحية أخرى لا ذنب لها، وهو الوحيد الذي يمكن اعتباره بريئاً من جريمة القتل.

ان الكاتب يعي تماماً جدلية الموت والحياة، القتل والولادة، الحب والكراهية عبر سيرورة الزمن.

يعرض ذلك كله من خلال شخوص تنبض بالحياة، مقدماً دليلاً آخر على كونه كاتباً انسانياً رائعاً لا يقتصر على تقديم الصور الكئيبة عبر مشاهد القتل الوحشية، فللحياة وجه آخر أكثر اشراقاً يمثله بيار الذي عاش سعيدا مع زوجته ولكن دون اموال.

في البناء الفني للرواية: يقوم البناء الروائي في القصة على تحطيم الزمن الروائي الذي اعتدناه في الاعمال الروائية الاخرى حيث يبدأ الكاتب بداية ما، ثم تتدرج هذه البداية ضمن سياق الزمن الذي يرافق تطور الحدث أو يقدم حدثه عن طريق ((الفلاش باك)) بادئاً من النهاية ثم يسير بنا الى الخلف، ان ماركيز يسلك طريقا آخر ساعده على ذلك كونه يعمل في الصحافة وقد اتقن مهنته الى حد كبير، لذلك لجأ الى اسلوب التحقيق معتمدا على ما ادلى به الشهود من خلال خطوط دائرية تتقاطع في كثير من الاحيان لتقدم حادثة القتل موحية بواقعية الرواية، لكن هذه الخطوط تتجه نحو الاعلى دائماً لتشكل الذروة التي اراد ان ينقلنا الكاتب اليها.

ان هذا التكنيك الروائي المتطور هو ما جعل الكاتب يحظى بجائزة النقد الادبي الاسباني مؤكدا بذلك ان شكل العمل الروائي لا محدودية له، وهو قابل للتطور والاغناء، وذلك متوقف على موهبة الكاتب وقدرته على امتلاك وسائله التعبيرية لابداع اشكال لاضفاف لها.

ان الواقعية التي اراد ان يقنعنا بها الكاتب في عمله لم تكن الا احد اشكاله الفنية التي استخدمها ليقدم لنا قصة غاية في مهارة الصنعة واحكام البناء تطرح مجموعة من الاسئلة وتحتمل اسقاطات عديدة. وهذا ما حاولت ان اجيب عنه، ليس عنه بالضبط بل عن بعضه، وحسبي جدية المحاولة أصابت ام اخطأت، انها رؤية قارىء لعمل كبير بعيدة عن احكام النقاد القسرية.

دمشق

مؤلفـات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايـات

- **الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)**
- **الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)**
- **أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)**

قصص

- **أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)**
- **أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)**

آفاق « الآداب »

- **في معترك القومية والحرية (ط ٢)**
- **مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)**

مترجمات (صدرت أخيراً)

- **الطاعون - لألبير كامو**
- **الثلج يشتعل - لريجيس دوبريه**
- **من أكون في اعتقادكم - لروجيه غارودي**